الفتاتين اللتين طلعتا من الليمونتين، حتى انتهى إلى الفتاة الأخيرة فاحتال بأن أشاح النظر عنها وقدَّم كأسَ الماء، وشُدَّ ما كانت فرحته عندما رآها صبيةً جميلة، فسمّاها «فتنة» لأنها فتنت قلبه ولبّه. وأخيراً رجع بها إلى مملكة أبيه، لكنه استمهلها ليذهب إلى القصر ويأتيها بالوصيفات والماشطات إذْ لا يجوز أن تظهر الأميرة إلا بما يتناسب مع مرتبتها الملوكية.

وما إنْ ذهب عزيز حتى أقبلتْ خادمةٌ سوداء تستقي من العين، فرأت صورة «فتنة» منعكسةً من أعلى شجرة الدّلب على المياه المترقرقة، فظنت الخادمةُ أنها جميلةُ الوجه وأنّ سيدتها تضطهدها تعسُّفاً منها وحسداً... فصعدتْ إلى الأميرة الجالسة على غصن الشجرة مدعيةً أنها تريد أن تمشط شعرها. وما لبثت أن غرزتْ دبوساً سحرياً في رأسها حوّلها بسرعة إلى حمامة. وفوجئ الأمير عزيز بزوجته وقد غدتْ على هذه الصورة، لكنه لم يشأ أن ينكث عهدَهُ فأخذها إلى القصر حيث شاهد أبوه دمامَتَها، فغضب غضباً شديداً واتخذ قراراً بتأجيل موعد الزواج. بيد أنّ الأميرة «فتنة»، وقد استحالتْ حمامةً بيضاء، ظلت تطير في حديقة القصر. فانتبهت الخادمةُ وطلبتْ من عامل القصر أن يقتلها ويقدِّمها لها طعاماً سائغاً. وكان عزيز المكتئب يشاهد ما يحدث من نافذته، ولاحظ أنّ ثلاث نقاط من الدم تتساقط من عنق الحمامة فتنبت على الأثر ثلاثُ ليمونات. فأدرك أنه أمام مشهد سحري ذكّره بما رآه في الجزيرة السحرية البعيدة. ولذلك فقد أخذ سكينه وقطف لها ثلاث ليمونات، وجعل يتفرَّس ليرى زوجته التي طلعتْ أخيراً من الليمونة، فسقاها كأس الماء غير هيّابٍ. ثم قدَّم عروسه الحقيقة إلى أبيه الذي فرح فرحاً عظيماً وأقيمت الأفراحُ أربعين يوماً وأربعين ليلة. أما الخادمة القبيحة فلم تُقتل بناءً على رجاء «فتنة»، بل نُفِيَتْ خارج المملكة، وعاش الجميع بسعادة وهناء.

*

المشكلة الأولى التي تطرحها هذه الحكاية الجميلة حقاً هي مشكلة شاب يعزف عن الزواج منصرفاً إلى الصيد وارتداء الملابس الجميلة. لقد قطع عزيز صلته بالجنس الآخر، فكأنه ألغى جانباً مهمّاً من ذاته حين استبدل الحبَّ والغريزة بتسليات تبدو تافهة بالقياس إلى الأنوثة وهي مطلب الرجلِ الكاملِ الرجولةِ. ثمة نقصٌ خطير في شخصية عزيز، رغم أنّ الحكاية لا تشير ولو إشارة عابرة إلى كراهيته لجنس النساء. ومع ذلك فهذه الحكاية تنبّه إلى حالة بعض المراهقين الذين تتأخر ميولهم نحو الجنس الآخر، أو إلى حالة بعض الشبان الذين يتملكهم حذرٌ من الوقوع في مهاوي الحب كما يتوهمون. ولعلّ الحكاية تتطرق إلى مسألة أكثر تعقيداً. فالأمير عزيز ـ والإمارة هنا تمويهٌ يغطي حقيقةَ كلِّ فرد على سبيل الإيحاء ـ يريد فتاةً تتطابق والصورةَ التي رسمها لها خيالُه؛ ولذلك يتذرع بحجج شتى: فتارة يبدو وكأنّه يرفض الزواج بصورة مطلقةٍ، وطوراً يبدو وكأنّه يحلم «بأميرةٍ فتّانةٍ يرى خيالها ولا يعرف من هي» (ص ٣٧). طبيعي أن يرفض عزيز الزواجَ ببنات الأكابر في المملكة رغم جمالهنّ وتهذيبهنّ، إذ ثمة اختلافٌ جوهريٌّ بين ما تشاهده عينه وما يشاهده خياله. فالحب لا ينفصل عن الأحلام والأشواق الدفينة، وصورةُ الحبيبة ليست عرضية بل مغروسة غرساً في الذات.

لكنّ لكلّ تردد نهايةً، فلا بد للرجل أن يختار أخيراً وأن يبلغ درجة النضوج العاطفي والنفسي. ذلك أنّ اختيار الزوجة المناسبة ينبئ عن مرحلة عليا جديدة تسمو على ما سبقها من مراحل اللهو لأنها تفصح عن المشاركة، وهي ميزة الإنسان الطبيعي. كان عزيز من قَبْلُ شخصاً نرجسياً، وأما الآن فهو سيصير كائناً اجتماعياً كما يقول أرسطو، أو كائناً يتعاطف مع الآخرين، يحب ويشارك كما يقول الدين. على أنه الآن في موقف حرج: فإذا كان لا بد من الزواج لأنّه سُنّة الطبيعة، فلا بد له أن يسافر ليختار الصورة التي تتناسب مع صورة خياله. وهكذا يُبحر عزيز بعد أن يَعِدَ أباه أن يجد «أميرة بيضاء كثلج لبنان، جميلةً كربيعه، ذكيةً محبوبة»، ثم يتابع: «وإلاّ فلن أتزوج أبداً». الأمير عزيز إذن ليس متبلّد الشعور وإلا لما داعبتْ خيالَهُ صورةُ الحبيبة وتحمّلَ مشقات السفر. لكنه في الوقت عينه صاحبُ شروط معينة؛ فهو يريد زوجةً مشتقةً من ضِلع خياله، إنْ جاز التعبير، ولذلك لا يستطيع المساومة أو أن يتزوج لمجرد الزواج.

*

لكنْ ما معنى السفر في حكايات الأطفال الشعبية، بل في التراث الشعبي على اختلاف عصوره وبيئاته؟ السفر يرمز إلى الانفصال عن البيت حيث الأمان؛ إنه انحلال الروابط النرجسية التي تشد الإنسان إلى الأبوين. ولذلك فهو يتضمّن معنى نموّ الشخصية وبداية تخلصها من المصاعب التي تعرقل هذا النمو، بالإضافة إلى معنى الاستقلالية والمبادرة واعتماد الإيجابية. وإنّ ما يستدعي التأمل في هذا السفر أنّ عزيزاً استقلّ مركباً سحرياً: فالمجاذيف تتحرك من تلقاء نفسها، والشراعُ ينفتح لهبّ الريح كما تقول الحكاية. فلماذا تلجأ حكايةُ الأطفال الشعبية إلى هذه الطريقة، وهل هي ضرورية للقصة أم أنّها مجرد جوّ فانتازي؟ ألم يكن باستطاعة عزيز أن يسافر في مركب عادي؟ الواقع أن هذه

الحوادث السحرية تفصح عن تفتح العقل الباطن بطريقة عفوية. فالسحري يحيل على الأعماق، على اللاوعي، ولكي يفتّش عزيز عن عروسه فإنّ عليه أن يعود إلى نفسه، إلى عقله الباطن الذي يتميز بمعرفة عميقة جديرة بأن تقوده إلى المثال المنشود. ذلك أنّ العقل الواقعي قد يضلّل لأنه يتصل بالاعتبارات الاجتماعية والسياسية، كالغنى والطبقة؛ وأما العقل الباطن فلا يختار إلا ما يتناسب مع الصورة الحُلُمية. المركب الذي يسير تلقائياً في البحر رمزٌ، إذنْ، للعقل الباطن الذي يسير كما يشتهي. وإنّه لأمرٌ بليغُ الدلالة أن يُسافر عزيز بحراً ـ لا برّاً ـ إذ البحر يشير إلى اللاوعي، كما يشير إلى المغامرة والابتعاد عن مألوف العادات والتقاليد. والغريب أنّ المركب لم يصادف عقباتٍ تُذْكر، الأمر الذي يُلمعُ إلى سهولة العودة إلى الذات الحميمة.

الأدب الرسمي، على عكس الشعبي، يستمرئ العذاب ولا يدلّ على طرق الخلاص السليمة

وثمة رمزية أخرى تطالعنا بعد سفر عزيز. فقد ترك مملكته في فصل الشتاء، وإذا به يكتشف في الطريق وعند وصوله إلى الجزيرة أنه دخل في فصل الصيف وشعر بالحرّ الشديد. والحقّ أن للفصول رمزيةً خاصة لا تَخْفى: فالشتاء يرمز إلى العقم والشيخوخة والموت، والصيف يرمز إلى الشباب، وأما الخريف فيشير إلى الكهولة، بينما يقترن الربيع دائماً بالحب والفتوّة والسعادة. لذلك ترك عزيز مملكته في فصل الشتاء لأنه كان يعاني عقماً نفسياً ويعاني موتَ الحب. وأما الجزيرة النائية الضائعة في البحر فهي، في رأينا، تلك الرؤى التي تتراءى للإنسان في ساعات عزلته عندما يخلو إلى نفسه فتنكشف عاريةً كما هي، دون زيف أو مساومة.

*

وهكذا تطالع عزيزاً مناظرُ الصيف بنسماته الرطبة وحقوله الخضراء وفاكهته المشتهاة المتنوعة، ما عدا عناقيدَ العنب التي وجدها حِصْرِماً. ولا شك أنّ للعناقيد دلالَتَها الجنسيةَ الواضحة: فهي توحي بالأنوثة، كما هو شائع في الشعر بعامة والعاميّ منه بخاصة. وأما الحِصْرِم فدلالةٌ على أنّ عزيزاً لم يعثر على مبتغاه بَعْدُ. ومع ذلك فهو يدقّ الباب على مملكة الصيف ـ واللون الأصفر يوحي بسنابل الصيف الصفراء ـ حيث تطلُّ منه شابة حسناء حمراء الخدين، فيسألها عن أجمل فتاة في مملكتها.

ولكن لماذا دق عزيز بابَ مملكة الصيف ولم يذهب توّاً إلى ملكة الربيع؟ الجواب هو أنّ الأمير لا يزال متردداً لم يعِ بوضوح مقاصده الخفية.

لقد أخطأ الهدف، وملكة الصيف تحيله على ملكة الخريف لأنّ الأولى مشغولةٌ بالحصاد، أي بالعمل لا بالحب. وتراود عزيزاً هنا فكرةٌ لاوعيةٌ، وهي أن يتزوج من سيدة تكبره سناً. لكن علينا ألا ننسى أنّه يسأل نفسه بنفسه؛ فالسرد الحكائي ما هو إلاّ قناع تختبئ وراءه نزعاتُ الإنسان الخفية؛ كما أن الحب لا يتحقق إلاّ بمعرفة النفس، وعزيز يحاول سبر أعماقه ليحسن الاختيار. فمعرفة النفس في الحكايات الشعبية هي فضيلة الفضائل لأنها مصدر القوة الحقيقية؛ وما هدف الحكايات إلاّ تقريب السامع أو القارئ من نفسه ليتفادى المصاعب ويعيش ملء الحياة.

طبيعي أن يترك عزيز مملكة الصيف وألا يدخل بيتها الأصفر ليستريح من عناء الحرّ. ولو دخل لأمكننا القول إنه مزدوج المشاعر متناقض الميول؛ وتلك مسألة لا يبدو أنّ عزيزاً يعانيها بحدة. وها هو ينتقل إلى مملكة الخريف حيث تتبدى رموزه كالأوراق الصفراء والرياح الفاترة، في إشارةٍ إلى الكهولة، وهي مرحلة فيها ملامحُ مودّعةٌ من الشباب (القليل من عناقيد العنب) وفيها ملامحُ تنذر بالشيخوخة. صحيح أنّ عزيزاً يتناول فاكهةَ كلٍّ فصلٍ ـ وذلك رمز جنسي واضح ـ لكنه لا يتزوج من أية فتاة. كأنما عزيز يتزوج خيالياً عندما يأكل الفاكهة، أي أنه يعبّر عن نفسه هواماً، ويشبع رغباته بشكل مقنّع ورمزي. أما ملكة الخريف فتبدو امرأةً سمراء الوجه (واللون الأبيض في الحكايات الشعبية هو الذي يرمز غالباً إلى الجمال والفتوّة) وفي شعرها الأسود بعضُ شعرات بيض، وعلى وجهها مسحةٌ من جمال سرعان ما سيدبّ فيه الذبول. وعندما يسألها عزيز عن مطلبه تجيبه أنْ لا وقت لديها للاهتمام به؛ فالمرأة الكهلة لا تهتم بشاب مثل عزيز ولا تناسب فتى غريراً مثله.

وعندما يصل إلى ملكة الشتاء يتساقط الثلجُ وتعجز الفرس عن المشي، وهذا يدل على عجز الشيخوخة وخواء العقم. ثم إنّ عزيزاً يخاف أن يشتد الظلام في أرضٍ غير مضيافة، أي تفتقر إلى الخصب والحب. وهو يشاهد هنا امرأة عجوزاً قبيحة بيضاء الشعر تجعّد وجهُها وسقطتْ أسنانها. فهل تراود عزيزاً فكرةٌ لاوعيةٌ في الاقتران بامرأة متقدمة في السن هي رمز الأم أو رمز العقم النفسي والنرجسية الخاوية؟ ولماذا يسأل ملكة الشتاء عن مبتغاه مادام «المكتوبُ معروفاً من عنوانه» كما يقال؟ المهم أن عزيزاً قصد البيت الأخضر ـ الذي تحيط به أزهارٌ جميلة هي رمز الحب ـ وحيث تسكن ملكةُ الربيع. هنا تفتح البابَ صبيةٌ

جميلة تبتسم ابتسامة فتانة فيجيبها عزيز على ابتسامتها بأدب وبشاشة. لقد دخل عزيز البيتَ لأول مرة بعد أن جال على بيوت الملكات السابقات وهنّ ـ نكرّر ـ رموزٌ لحالات نفسية تنتاب الأمير. ويعني دخولُ البيت، بحسب سياق الحكاية، قبولَ ما يُعرض عليه. ولا يكتفي عزيز بدخول البيت، بل يتناول طعامه فيه، في حين أنه كان سابقاً يكتفي بتناول الفواكه الخاصة بكل فصل لكنْ خارجاً. لقد وصل بطلُ الحكاية إلى نهاية المطاف، لكنّ الزواج لن يمرّ دون اختبارات خاصة تَطْلبها ملكةُ العزيز كي يُثْبت عزيز أنّه أهل للزواج، أي أنّه بمعنى آخر ناضجٌ نضجاً كافياً.

*

تأتي طلباتُ ملكة الربيع وكأنها نوع من أنواع معرفة النفس، باعتبارها الطريقَ إلى القوة والسعادة. فلقد أعطته ثلاثَ ليموناتٍ محمرة اللون، بالإضافة إلى سكين من الفضة وكأسٍ ذهبية. فإنْ فشل في سقاية الفتاة التي تطلع من الليمونة، أظهر من الغباوة ما لا يؤهله لأن تكون له امرأة كما تقول الحكاية. ولهذه الاختبارات رمزيةٌ عميقةُ الغور لأنّ شقّ الليمونات المحمرّة يشير مواربةً إلى العملية الجنسية: فالأحمر لون الدم، والسكين عضوُ الذكورة كما يرمز إليه اللاوعيُ، والليمونةُ بديلٌ عن عضو الأنثى، وأمّا الكأس فتشير إلى ماء الحنان وإلى المشاركة الوجدانية التي كان عزيزاً عاجزاً عن استشعارها عندما كان ينصرف إلى تسلياته العقيمة. واللافت أنّ الحكاية الشعبية تؤمن أنّ ماء المحبة يفوق أهميةَ العملية الجنسية بحد ذاتها، وهي العملية التي ينبغي ألا نتصوّرها على النحو السادي الذي تشير إليه الرموزُ حرْفياً. إنّ الكأس ذهبية، وأما السكين ففضية اللون؛ وهذا ما يشير إلى علوّ منزلة الكأس بالنسبة إلى السكين. فليس المطلوب من عزيز أن يشقّ الليمونة فقط، بل أن يقدّم لفتاته الكأس. وهكذا فإنّ الزواج ليس جنساً فقط، وإنّما هو حبٌ ومشاركةٌ أيضاً.

*

بيد أنّ مشكلة عزيز لا تكمن في شقّ الليمونات، أي في العملية الجنسية، بقدر كمونها في عجزه عن تقديم الكأس لأنه بُهر بجمال الفتاتين الأُولَيَيْن. فهل كان عزيز يخاف لاشعورياً من الجنس الآخر، أم أنه كان مبهوراً بالجمال الأنثوي عاجزاً لنقص خبرته عن إقامة صلة روحية تتعدى الناحية الجسدية البحتة؟

إنّ العطاء الجسدي سهل إذ قد تقوم به البغيُّ، وأمّا العطاء الروحي فهو الأصعب والأشق لأنه يستلزم النضوج النفسي والتجرُّدَ عن النرجسية؛ وهذه عبرة من العبر العديدة التي تركز عليها حكايةُ الليمونات الثلاث. غير أنّ عزيزاً قام بحيلة بارعة في المرة الثالثة التي ينبغي أن تكون الثابتة والأخيرةَ في التصوّر الشعبي: فلقد قدم الكأس إلى الصبية دون أن ينظر إليها، فكأنّه تغاضى عن الجمال الجسدي ليتمكن من أن يسقيها ماءَ الحب الذي يتطلب اهتماماً روحياً يتعدى الناحية الجسدية. واكتشف، ويا للسعادة، أنّ الصبية أجملُ بكثير من أختيها، وعرف أنها جنيةٌ ابنةُ أحد ملوك الجان ولكنْ لا اسم لها معروفاً أو يحدِّد صفاتها. والجنية، كما في علم تأويل الرموز، هي بنت الخيال، بل هي ربيبة العقل الباطن الذي يرسم ـ سرّاً ـ أجملَ الصور الطالعة من أعماق الذات. وكونها بلا اسم يدلّ على أنها مشتقةٌ من ضلع خياله؛ فصورتُها لم تتبلور إلا منذ قليل. لقد منحها عزيز اسم «فتنة» لا لأنها فتنتْ لبَّه فقط، بل لأنها فتنته عن نزعاته النرجسية والطفولية القديمة أيضاً. ثم إنّ اسم «فتنة» يشير إلى مصدره، أي إلى الفتون والافتتان، وهما من عمل القلب وأعماق الذات. فالجنية التي لا تنتمي إلى عالم البشر، واسمُ فتنة، كلاهما يجسِّدان أحلامَ العقل الباطن؛ وهو العقل الأعمق والأجمل ـ وأحياناً الأسوأ ـ في الإنسان.

ليس المطلوب أن يشقّ عزيز الليمونة، بل أن يقدّم لفتاته الكأسَ!

*

لكنّ القصة لا تنتهي عند هذا الحد: فلقد أراد عزيز أن يجلب لأميرته الأثوابَ الملوكية والماشطات اللواتي يهتممن بها كي يستقبلها أبوه بما يليق بها من الحفاوة والإكرام. هنا ينشأ صراع جديد يتكرر دائماً في حكايات الأطفال الشعبية وفي الحكايات الشعبية عامة، وهو صراع السيد والعبد، الشريف والوضيع... أي صراع البريء الذي تنقصه الخبرةُ ومعرفةُ أقاصي النفس البشرية، والمعقَّد الذي يعاني الدونية ولا يقيم وزناً للقيم والأخلاق ولكنه ينجح مؤقّتاً لسذاجة البريء ولشطارته هو بالذات.

فعندما تختبئ «فتنة» في أعلى الشجرة منتظرةً عودةَ زوجها، تأتي خادمةٌ سوداء قبيحة الشكل لتملأ جرتها من عين الماء وقد انعكست فيه صورةُ الأميرة بجمالها الفتّان. تتوهم الخادمةُ أنها هي تلك الفتاة الجميلة وأن سيدتها تضطهدها وتحسدها على جمالها، فتكسر الجرّة تعبيراً عن رفضها العبوديةَ وتعود تخاصم سيدتها مدّعيةً أنّ من حقها أن تقلب الآية فتصير هي السيدة لا المَسُودة.